الأدب الانساني ومواجهة الغزو الثقافي

د. محمود طرشونه ■ تونس ■

نتساءل في البدء: لماذا توفق ثقافة ما في غزو غيرها من الثقافات؟ هناك عاملان اثنان لا ثالث لهما في نظري: الأوّل يتعلّق بطبيعة الثقافة الغازية والثاني بالثقافة المغزوة، وليست وسائل الاتصال الحديثة أساسية في هذه العملية، فهي مجرّد قنوات تيسر عملية الغزو وتزيد في انتشارها. فما كان لها أن تؤدي هذه الوظيفة لو لم تبث عبرها ثقافة متميّزة تخاطب العقل والذوق والوجدان في نفس الوقت أي تحوي قيماً إنسانية يتقبلها الإنسان مهما كان موطنه، وتقدم في شكل فنّي جذّاب لا يستطيع المستقبل له صموداً. هذا فيما يتعلق بالثقافة الغازية. فالفن شفيعها وسبيلها وعدتها وعتادها، به تغزو النفوس والعقول، وبه تقتحم الفضاءات وتدرك الغاية. أما طبيعة الثقافة المغزوة فهي أيضاً عامل أساسي في عملية الغزو. فالمرء يهفو إلى ما ينقصه. وكلّما كانت ثقافة قوم فقيرة، تمرّ بمرحلة ركود وانحطاط، كان غزوها أيسر، لأن أهلها لا يجدون فيها ما يشفي غليلهم إلى المعرفة والأصالة والعمق، فيلتجئون إلى غيرها من الثقافات، باحثين عمّا تفتقر إليه ثقافتهم من ثابت القيم وأصيل الفن، فينساقون إلى ما يعرض عليهم من متع أدبية ويغريهم بجاذبية الفن وسحر البيان، فيعجزون عن المقاومة مهما قوي فيهم الوازع القومي والغيرة الوطنية، وتتم عملية الاكتساح في هدوء عجيب، ولا يُتفطن إليها إلا بعد تجذرها وفوات الأوان. وما كان الاكتساح متيسراً لو وجد المرء في ثقافته ما تهفو إليه نفسه من متعة فنية وقيم إنسانية. لذا يمكن أن نتساءل عن مقومات هذا الأدب الانساني الذي من شأنه أن يجنبنا الاستسلام إلى الغزو ويحول ثقافتنا بدورها إلى ثقافة ذات إشعاع عالمي. وحتى لا يكون تحليلنا نظرياً صرفاً رأينا أن نبحث في الأدب التونسي عن نماذج يمكن أن تتوفر فيها بعض تلك المقومات. ولا شك أن الأدب العربي يزخر بمثل هذه النماذج التي من شأنها أن تجعل الثقافة العربية متصدية للغزو الثقافي وقادرة على الإشعاع.

فما الذي يجعل بعض المؤلفات ذات شهرة عالمية، تغزو غيرها وتبقى مدى الدهر غير ما تحويه من فن ومن قيّم إنسانية خالدة يتفاعل معها الإنسان مهما كان جنسه ويتأثر بها مهما كان موطنه؟ لكن هل توجد قيم ثابتة لا تنال منها الملّة والنحلة ولا تنقلب إلى ضدّها بفعل المذاهب والأهواء والعوامل؟ ذلك شأن الفن الأصيل الراقي، يتناول نظاماً في التفكير والسلوك والحياة ويكسوه حلّة فاخرة من جماله وجلاله، ويعيده إلى الانسانية في صورة الحقيقة الثابتة التي لا تقبل الطعن ولا الشك ولا التجريح. لكن الشك ذاته قيمة إنسانية، إنه يعصف بالنفس البشرية، فيولّد فيها قلقاً يحث دوماً على السؤال والإلحاح فيه وعلى المراجعة المتجددة والدائمة لمنزلة الانسان في الكون والطبيعة ولحظّه من الإرادة والمسؤولية، ومن الحرية والعدالة. فيتكرر السؤال الأبدي الأزلي عبر الفنون والعصور: من أنا؟ ما الوجود وما العدم؟ ما الموت وما الحبّ؟ ما الحرية وما حدود القدرة البشرية؟ ما معنى الحياة إذا كان الموت بالمرصاد؟ كيف الوصول إلى تحقيق الذات في عالم تتصارع فيه قوى الخير وقوى الشر، ويسحق فيه الضعيف والمغلوب على أمره، ويسيطر فيه من يمتلك أكثر من غيره وسائل القمع والردع والدمار؟

إلا أن الأدب الراقي لم يعد يقتصر على معالجة مثل هذه القضايا الانسانية الكبرى. وذلك لأن القيم ذاتها في تطور مستمر. فقد يحدث ما يبوء بعضها في عصر من العصور مكانة في أعلى الدرجات، مزحزحاً ما كان يعتقد أنه أثبت القيم وأسماها. ففي عصرنا الحاضر مثلاً تحوّل الاهتمام عند الكثير من أهل الفكر والأدب والفنّ من القضايا الكونية والجوهرية إلى مشاغل حياتية صارت لا تقل قيمة عن حيرة النفس ومآل الروح وأصل الكون والكائنات. فقد صار الانسان اليوم يستقطب الاهتمام بسبل معاشه وهمومه اليومية وعلاقاته الاجتماعية

وصراعه من أجل البقاء رغم قسوة الطبيعة والجفاف والتصحر، وجشع المستغِلّ، والمحتكِر، وأنانية المتحكمين في مصادر الثروة ووسائل الانتاج في العالم، فهذا الانسان الذي يصارع الأقدار ويروم العيش حرّاً كريماً، في مأمن من غوائل الدهر، هو الذي صار محلّ عناية الأدباء والفنانين. فتحولت القيم الانسانية من علاقة الانسان بالغيب إلى علاقته بأخيه الانسان وبمحيطه وحاضره ومستقبله. وقد ساهم في تحويل الأنظار إلى هذه الوجهة عباقرة إنسانيون اكتشفوا قيمة الوجود الانساني وأهمية العوامل المادية في حياة البشر ودور مناطق اللاوعي في وجدانه وسلوكه. وتخيّلاته.

وصار التركيز على هذه المعاني المستوحاة من الواقع المعيش ذي البعد الانساني الثابت من مقومات الأدب الانساني الذي لا يكون كذلك إلا إذا توفر فيه إلى جانب ما ذكرنا الابداع الفني الراقي. وبذلك تتضافر أربعة عناصر هامة فتنشىء أدباً كونياً ذا إشعاع عالمي وهي:

- إستلهام الذات.
- الانطلاق من قضايا المحيط الذي يعيش فيه الأديب.
- البعد الانساني.
- القيمة الفنية.

فهذه العوامل متضافرةً هي التي تخلق أدباً أصيلاً قوي الابداع والقصد من الأصالة في هذا المجال ليس إلا الطرافة والابتكار والاهتداء إلى معان شعرية ومواقف وشخصيات قصصية متميّزة. أما قوة الابداع فإنها دليل على قدرة الأديب على التصرف في مادته وتركيز إنتاجه على مضامين ثرية وخصبة يمكن أن تكون مستوحاة من واقعه أو من واقع الانسان عامة ووجدانه ومنزلته في الكون، والقضايا المحيرة لوجوده وكيانه، فكلّ هذه المعاني تلقى صدى طيّباً في بلاد المنتج وخارج بلاده ويجد فيها العديد من الناس أنفسهم وقضاياهم وأحلامهم وأشجانهم فيتقبلونها ويتبنونها. ومن هذه العوامل أيضاً طرافة الأشكال الأدبية وتلاؤمها مع المضامين المعبرة عنها. فكلّما خرج المبدع عن الطرق المعبدة وحاول الابتكار والتفنن في بناء نصوصه الشعرية أو النثرية كان إشعاعه أعمق وأوسع. وقد يُفصل الفنّ حسب بعض المقاييس على طرافة المضامين والمواقف خاصة في الأدب الذي تتميز وظيفته عن غيره من الوسائل الاعلامية والدلالية بمقدار أدبيته وعمق صدقه الفنّي وخلوّه من التصنع والتكلف والشعوذة اللفظية والألعاب البهلوانية الأسلوبية فهذه أشياء قد تبهر بعض القراء في ظروف معيّنة لكن ليس لها تغلغل دائم في النفوس. وقديماً كان العرب يميّزون بين الطبع والصنعة، فيميلون إلى الشعر المطبوع لكنهم لا يستنكفون من التحكيك والتنقيح والتهذيب والابتكار بل يحثون عليها الشعراء.

وقد تضخم تراث الإنسانية من عصر إلى آخر بآثار عمرانية ومؤلفات أدبية وموسيقية وتشكيلية رائعة تفاعل معها الانسان قديماً وحديثاً لاحتوائها قيماً جمالية وإنسانية خالدة، وساهم عمالقة الفكر الانساني في بناء ذلك الصرح الكبير الذي لا تؤثر فيه الظروف والمذاهب مهما كان حظها من الحداثة والتجرّد. ذلك لأنه صرح متين البنيان، ثابت الأركان، متناسق الأشكال، عماده الانسان، وقوامه النفس البشرية في مختلف أطوارها وانفعالاتها وأحلامها وتخيّلاتها.

وإن الأمثلة الدالة على مثل هذه الصروح الشامخة عديدة لا يتسنى حصرها إلا لمنظمات دولية تقوم بعمل طويل النفس يعتمد الكشف والاحصاء والتقييم لكامل الآثار العالمية، وانتقاء نماذج منها ممثلة لحضارات متعاقبة جعلت غايتها الانسان قديماً وحديثاً. ويمكن أن نذكر على سبيل المثال بعض النماذج الدالة على وجود مثل هذه الآثار الخالدة مثل الكتب السماوية الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن. ففيها من الحكمة الأزلية والعمق الانساني ما يجعلها باقية في وجدان البشر وضمائرهم مدى الدهور رغم اختلاف الأديان والعداء القائم بين المنتمين لكلّ منها، بل إن القيم التي تضمنتها تلك الكتب قد تؤثر حتى في غير المتدينين بعد تجريدها من الاشارات الظرفية ومجادلتها لخصوم الأنبياء وبصفة عامة من كلّ معاني الترغيب والترهيب.

ويمكن من جهة أخرى أن نعتبر الفلسفة الاغريقية وامتدادها في التفكير الاسلامي قديماً والتفكير الفلسفي حديثاً من تلك الآثار الباقية التي تواصل إشعاعها بعمق عبر العصور. فمن يعالج اليوم قضية فلسفية ما بدون أن يعرج تصريحاً أو تلميحاً إلى أرسطو وأفلاطون؟ ومن ينكر فضل ابن رشد وابن سينا والفارابي في تاريخ التفكير الإنساني؟ لكن من المفكرين من غيّروا بتفكيرهم وجه الانسانية ووجهة التاريخ، وكانت ثمرة تأملاتهم في قضايا الانسان منعرجاً بنّاء في مسيرة الانسان، وأهم هؤلاء اثنان أحدهما فكّر في معاش الانسان ودوره في التحولات الاجتماعية وهو كارل ماركس والثاني تأمل في باطن الانسان ولاوعيه وأحلامه وعقده وهو فرويد. فكلّ من هذين العملاقين قد أدخل الانسانية قاطبة طور الحداثة من الباب الكبير، وأحدث ثورة فكرية هائلة لا تقل أهمية عن الثورة التي أحدثها تفكير كنفوشيوس (Canfucius) في الحضارة الصينية في القرن السادس قبل المسيح أو محمد في الحضارة العربية برسالته الجامعة بين الدين والدنيا.

وفي تاريخ الأدب علامات مضيئة تعتبر اليوم من تراث

الانسانية لاحتوائها مجموعة هامة من القيم الخالدة، وصوراً من الخيال البشري في تَوقه إلى التجاوز والابتكار من ذلك الملاحم القديمة وبالخصوص الالياذة والأوديسة للشاعر اليوناني هوميروس والملحمة العراقية القديمة قلقامش والشاهنامه الفارسية للشاعر الفردوسي. وكلّها صروح أدبية كبيرة تمجد الانسان وقدرته على الصراع والصمود في وجه الطغيان والانتصار عليه. وقد سجل تراث الانسانية صنفاً آخر من المؤلفات التي احتوت مجموعة من القيم الانسانية الخالدة مثل كتاب «كليلة ودمنة» الذي حفظ حكمة الهند في قصص على ألسنة الحيوان مرّ عبر اللغة العربية إلى جلّ لغات العالم فهو يعَدُّ بحق مثالاً للأدب العالمي الذي يجد فيه كلّ شعب ضالته. ومن جهة أخرى يمكن أن نعتبر كتاب «ألف ليلة وليلة» من هذا القبيل إذ تجمّعت فيه روافد من حضارات عديدة فانطلق الرواة من نواة هندية بسيطة نقلت إلى الفارسية ثم نسج العرب حولها حكايات في بغداد ومصر استطرفها المترجمون والباحثون في الشرق والغرب فنقلوها إلى لغاتهم وبحثوا في أصولها ومدلولاتها وحاكوها ووظفوها في مسرحهم وموسيقاهم وشعرهم ورواياتهم وحتى في السينما والأوبرا وقصص الأطفال وغيرها.

ثم تعددت الآثار القصصية التي تبنتها الانسانية جمعاء لما وجدت فيها من قيم أصيلة وفن جيد تجاوز إبداعه ما عُرف من قبل بفضل تيارات فكرية واجتماعية جديدة. فلمع العديد من أسماء الروائيين مثل بلزاك وتولستوي ودستويفسكي وجويس وفولكنر وغيرهم وصارت مؤلفاتهم متداولة في كل اللغات يتفاعل معها الناس مهما كانت أجناسهم ولغاتهم إذ الفن لغة لا تعرف الحدود الجغرافية ولا السياسية. فالآثار القوية تفرض نفسها على الجميع وإن كانت مستوحاة من واقع مخصوص مثل مسرح شكسبير ومسرح برخت فإنهما ظهرا في عصرين مختلفين وبيئتين مختلفتين ومع ذلك فقد تبنّتهما الانسانية لأن الفن كان شفيعهما الى الخلود، كما كان شفيعاً للعديد من الشعراء قديما وحديثا أمثال عمر الخيام وناظم حكمت وبابلو نيرودا ولوركا والسيّاب. فهؤلاء جميعاً قد انطلقوا من انفعالاتهم الذاتية المتجذرة في محيطهم الاجتماعي الخاص، متخذين مواقف واعية من قضايا العصر، غايتها رفعة الانسان وتقدمه. فنتج عن كل ذلك فن مبتكر تأثرت به ثقافات عديدة إذ وجدت فيه قيماً إنسانية تتجاوز حدود البلدان التي ظهر فيها ذلك الشعر.

ولعل جائزة نوبل قد أحدثت مبدئياً لترصد مثل هذه القمم العالمية لكنّها حولت عن وجهتها الأصلية وأقحمت في أحكامها وتقييمها اعتبارات سياسية أضعفت مصداقيتها، فغلب عليها تجاهل مبدعي العالم الثالث والانحياز إلى من يتفق وتوجهات أعضاء لجانها، فلم يعد من الممكن الثقة في نتائجها للبحث عن عمالقة يمكن اعتبار مؤلفاتهم من تراث الانسانية. إنما التاريخ وحده هو الكفيل بغربلة الآثار وتبني الانسانية لها مثلما فعل بالنسبة إلى العديد من أصحاب السمفونيات كبيتهوفن وموزار وهيدن وكورساكوف وغيرهم، والرسامين من أمثال ليونار دا فنشي وميكال أنج وبيكاسو وغويا وحتى الآثار التاريخية كالأهرام بمصر وقصر الحمراء بالأندلس وسور الصين ومدينة البندقية وآثار قرطاج وتاج محل وبصفة عامة كل المعالم التي تبنتها منظمة اليونسكو واعتبرتها من تراث الانسانية الذي يتحتم تعهده والتعريف به.

* * *

أحببت أن أعرض هذا القسم النظري العام حتى يتسنى لنا إستصفاء مؤلفات تنطبق عليها بعض هذه المواصفات قصد ترشيحها إلى تبوُّؤ منزلة عالمية والعمل على التعريف بها وإخراجها من حدودها الوطنية التي فرضتها عليها ظروف حضارية واقتصادية مختلفة بعضها يتعلق بالأفكار المسبقة التي لا يولي أصحابها أهمية إلا لمن يندرج في محيطهم الثقافي الضيّق ويوافق نزعاتهم السياسية والايديولوجية، وبعضها الآخر يتعلق بضعف إمكانيات النشر والتوزيع والترجمة والتعريف.

وإني أزعم أن الثقافة التونسية ـ بصفتها جزءاً من الثقافة العربية ـ أفرزت عمالقة بعضهم حظي باعتراف عالمي مثل العلامة ابن خلدون والبعض الآخر ثبتت مكانته في المستوى القومي مثل الشاعر أبي القاسم الشابي وآخرون كرّس البحث الجامعي منزلتهم في حدود الوطن كمرحلة لانتشار قيمهم على الصعيد القومي ثم العالمي ومنهم الأديب محمود المسعدي. إلا أن الحركة الفكرية والأدبية في الوقت الحاضر بصدد بلورة طاقات أخرى بدأت في العطاء الجاد ولا يزال إنتاجها متواصلاً ولذا يصعب استصفاء أعلام في هذه المنزلة من الآن، لكن يمكن الانطلاق من بعض القيم الانسانية في إنتاج مجموعات منهم تمكّن من التكهن بما سيؤول إليه هذا الغليان الخلّاق من بذور طيبة.

وقد ذكرنا ابن خلدون رغم أنه ليس من أهل العصر الحديث لأننا اعتبرناه مثالاً للفكر الخلاق الرافض للأنماط المعرفية السابقة والمعاصرة له، والمجتهد في ابتكار نظام فكري طريف اعتبر إكتشافاً بهر الناس ولا يزال إذ غاص بعمق في حقيقة العمران البشري وأركانه إنطلاقاً من تعريف جديد لمفهوم التاريخ، فاعتبر بهذا التعريف وبتطبيقه واضع علم الاجتماع وصارت مقدمته موضوع المئات من الكتب والدراسات في العالم بأسره وفي مختلف اللغات.

وفي مجال الشعر عاش في الثلث الأول من هذا القرن شاب مرهف الحس، عميق الوعي بحرية الانسان والصمود في وجه من سماهم «بطغاة العالم» غذت شاعريته صورُ واحات الجنوب التونسي وغابات الشمال، وشدائد صقلت موهبته الشعرية، وروافد تراثية ورومنسية ثقّفت إنشائيته ودفعته إلى التعبير عن أعماق الذات البشرية في تفالعها مع الطبيعة والمحيط الاجتماعي. لقد تجاوز إبداع الشابي حدود الذات والوطن إلى الغوص في باطن النفس وعميق الوجدان أو مناجاة الكون في حالات شعرية متقلبة بين القنوط والأمل، والنشوة العارمة والحزن الكبير، فأدى في هيكل الحب صلوات تمجده وتجعل منه أسمى القيم الانسانية في الوجود. وقد ظهر ابو القاسم الشابي في عصر هبّت فيه ريح النهضة والاصلاح في المشرق العربي، ووفدت فيه على تونس روائع الأدب الرومنسي، ونتاج الأدب المهجري الساعي إلى تجديد القوالب الشعرية وتنويع مصادر الالهام، فانصهرت كل تلك الروافد في قلب الشاعر أولاً ثم انعكست في إبداعه الشعري، فأفرزت ديواناً يزخر بالمعاني السامية والعواطف الجامحة التي ـ وإن بالغ الشاعر في تهويل جانب الحزن فيها ـ فإنها تقوم أحسن دليل علب ما انتاب الشباب التونسي من حيرة وقلق بين الحربين. لقد فجّر الحبّ في فؤاده أكواناً وشموساً ونجوماً وربيعاً، ورياضاً وطيوراً، فجر في صدره قصوراً وغيوماً و«حياة شعرية» هي في نظره من «حياة أهل الخلود» كما يقول في قصيدة «صلوات في هيكل الحب» وإنه لمن النادر أن نجد شاعراً أراد الحياة كما أرادها أبو القاسم، وغنّى لها كما غنّى فكان دوماً يرفض بقوة حياة الخذلان والهوان التي فرضها الاستعمار على شعبه ويصيح فيه بأعلى صوته:

ومن لم يعانقه شوق الحياة ... تبخر في جوها واندثر
فويل لمن لم تشقه الحياة ... من صفعة العدم المنتصر
كذلك قالت لي الكائنات ... وحدَّثتني روحها المستتر

وازداد هذا الشوق رسوخاً في نفسه في «نشيد الجبار» في أبيات صارت من الحكم المتداولة بين الناس لشدة ما فيها من صدق اللهجة وقوة العزيمة والتعبير:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو الى الشمس المضيئة هازئاً ... بالسحب والأمطار والأنواء
لا أرمق الظل الكئيب ولا أرى ... ما في قرار الهوة السوداء

وفي نفس الفترة تقريباً، وعلى وجه التحديد في نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات ألف الأستاذ محمود المسعدي مجموعة من الروايات التي تندرج في نفس الاطار إذ تمجّد هي أيضاً الارادة الانسانية والفعل الانساني، وتتوق شخصياتها إلى التجاوز والخلق لا تبالي بما ينتصب في طريقها من عقبات إذ كانت غايتها الخلود والاطلاق عبر الفعل وقوة الشكيمة. وإن مؤلفات المسعدي الابداعية ليست عديدة، فهي لا تتجاوز الثلاثة (حدث أبو هريرة قال. . . . ـ السد ـ مولد النسيان) ومع ذلك فهي تعتبر علامة هامة في تاريخ الأدب العربي الحديث لما فيها من أبعاد إنسانية ثابتة. ولعلّ تحليل أهم الأحداث كفيل بإعطاء صورة واضحة عمّا تزخر به من قيم إنسانية أصيلة.

«فحدث أبو هريرة قال. .» ينتمي إلى الأدب القصصي ويعتبر في نفس الوقت امتداداً للقصص العربي القديم وإحياءً وتجديداً له. وإن كامل الأحداث تدور في فَلك شخصية رئيسية اختار لها المؤلف اسم صحابي شهير ومحدث من الثقات. لكن الشخصية القصصية تختلف تمام الاختلاف عن الشخصية التاريخية وربما كانت نقيضها. فأبو هريرة في كتاب المسعدي إنسان قلق متمرد لا يستقر على حال، أخرجه صديق له من جموده وتقليده فاكتشف الحس واللذة، فكان البعث الأول. ثم أغرق فيهما إلى حد الملل فوضع ريحانة رغم أنها وهبته من المتعة ألواناً، فطلب الغيبة لكنه لم يدركها إذا وقع من جديد في شراك الجسد وعوض أن يجد في الراهبة ظلمة الهذلية دليلاً يرشده إلى عالم الغيب والايمان، أدخلها عالم المتعة «والدير يحسبنا نتعبد ونبتهل وإنما كنّا في الشيطان» (ص١٤٠) ثم جرّب الحياة مع الجماعة فعلمها الارادة وبكر السبيل وحياة الخصب والرخاء لكنه ما إن تخلى عنها حتى انخذلت وعادت إلى تطاحنها، فخاب أمله وطلب المطلق وظنّ أنه بلغ غايته وأدرك لغز الحياة والموت وما وراء الموت. فكان البعث الآخر.

تلك أهم أحداث القصة نختزلها ونرتبها الترتيب المنطقي أي الزمني المخالف لترتيب اللوحات أو الروايات في الكتاب. وتصرّف الكاتب في الزمان وحتى في المكان هو الذي يكسب هذا الأثر حداثة ما كانت الأحاديث والأخبار التي تقوم القصة على أشكالها لتعرف شيئاً منها.

أما كتاب «السد» فقد اعتمد شكل المسرحية إطاراً لأحداثه مع حفاظه على صور ومفاهيم وألفاظ مستقاة من التراث العربي والاسلامي ذلك لأن غيلان شخصية مأساوية قوية قد يكون الاطار المسرحي أنسب للتعبير عن طموحاتها وآرائها، فأهم الأحداث تقوم على رغبة غيلان في بناء سدّ يحبس الماء الضائع في أرض ظمأى تعاني القحط والجفاف ويمتنع أهلها عن الاعتراض على موانع الإلاهة صاهبّاء وهواتف أنبيائها فتمرد غيلان على تلك القوى الغيبية ولم يثنه إيمان ميمونة ورضاها بالمقدّر. فنجح في التصدي للعراقيل وبنى سده رغم كل الصعاب، لكن سرعان ما هبّت عواصف هوجاء وغضبت الطبيعة وانهد السد وسقط

أنقاضاً. وكانت ميارى قد شدت أزره عندما خذله عمّاله ودفعته إلى المثابرة على الجهد، فظهرت، طيفاً خيالاً وبعثت في نفسه أملاً متجدداً وعزيمة وأرشدته إلى نور في الغاب منير، فقالا في صوت واحد: «لَنَعْلُوَنَّ برأسينا ولنفتحن لهم في السماء باباً». وبذلك قضي على إرادة غيلان بالفشل، لكن ذلك لم يمنعه من التفكير في تجديد التجربة لأنه يعتقد أن الفضل كل الفضل في الفعل والعزم.

ويتضح من هذا التحليل الموجز لأهم الأحداث أن هذا الكتاب ينتمي إلى جنس المسرح الذهني الذي يهدف إلى تبليغ أطروحة فكرية في شكل فنّي. وقد أثارت المسرحية لما نشرت لأول مرّة سنة ١٩٥٥نقاشاً حاداً في الساحة الأدبية أذْكَاهُ المرحوم طه حسين بقوله: «وحسبك أني قرأتها مرّتين ثم احتجت إلى أن أعيد النظر فيها قبل أن أملي هذا الحديث. وهي بأدب الجدّ العسير أشبه منها بشيء آخر». لكن بقية الفصل الذي خصّصه لها دلت على فهم عميق لمختلف أبعادها خاصة عندما ربطها بالتيار الوجودي القائم على الحرية والارادة والمسؤولية، ونزّلها في إطار وجودية إسلامية عميقة الجذور في التراث العربي الاسلامي.

ولا يقل مدين في «مولد النسيان» عزيمة عن غيلان فهو أيضاً أراد تجاوز حدود الذات الانسانية بإرادته الخلود. فقد ساءه أن يرى النّاس يجدّون ويسعون فيهيئون الطعام للدود والفناء، وأزعجه أن يتداوى الناس بالأوهام والغيبيات، فبنى مارستاناً يعالج فيه المرضى ويصدهم عن الاستعانة بسحر رنجهاد سادنة عين سلهون، وأحب أن يركب عقاراً يعيش أبداً من يتناول منه ولما مات له أول ميّت إنتابه الشك في قدرة أدويته في القضاء على ما يسمّيه أبو العتاهية بـ «هادم اللذات» وفكر في الاستعانة بدوره بسحر رنجهاد. فأدخلته الغاب ورافقته إلى عين سلهوى وأرته كيف يعاني الأموات من ذكرى أجسادها، وعلّمته أن يطهر من الزمان دواءه لأن الزمان الذي يجعل الروح تحنّ إلى الجسد حتى بعد الموت. وكان أول من تناول الدواء الذي ركبّه. فظن أنه أدرك الخلود.. ساعة. لكن جسمه انهار وتعفن في لحظات. وبذلك فشل هو أيضاً في نيل الخلود. إلا أن ليلى التي كانت تعترض على تجاربه قد أصابتها بعد موته عدوى الارادة، فكانت نهاية مدين بداية لها. وهكذا تتجدد عبر ليلى التجربة الانسانية وتبقي على الأمل في نيل المراد.

إن بعض من اطلع على هذا الأدب اعتبره أدب الهزيمة تتوج التمرد وتفلّ العزائم. ولو صح هذا الفهم لما كان لأدب المسعدي قيمة فكرية تذكر إذ لا يعقل أن يدعو الفن الرفيع إلى اليأس والتشاؤم ويبقى مع ذلك إشعاعه وبعده الانساني لكن تحليل الجوانب الفنية كفيل بمعرفة غاياته على حقيقتها.

* * *

لقد ركزنا الاهتمام على هؤلاء الاعلام الثلاثة ابن خلدون والشابي والمسعدي لأن إنتاجهم يمثل حلقات منتهية أو تكاد إذ الثالث لا يزال على قيد الحياة لكنه انقطع عن الابداع بسبب مشاغل سياسية ومهام حكومية وبرلمانية، ومؤلفات الشابي والمسعدي ظهرت قبل الاستقلال(١٩٥٠)الذي يمثل منعرجاً هاماً في الحياة الوطنية غيّر وجهة الأدب والفكر. فبدون أن يخرج الابداع عن القيم الانسانية فإن وجهته تحولت من منزلة الانسان في الكون إلى منزلته في المجتمع. وبذلك تحوّل التركيز من حيرة النفس البشرية إزاء الوجود والحياة والموت إلى ضغط إلهام المشاكل القائمة في البيئة والمجتمع. وهذا لا يقل أهمية في نظرنا عن القضايا الفلسفية العامة التي حيّرت الجيل السابق. فالعصر صار عصر الصراع من أجل تحقيق الذات وإثبات الهوية والخروج من التخلف، وعصر المطالبة بالحرية والعدالة الاجتماعية في توزيع الثروات الوطنية وحتى العالمية.

والواقع أن هذه القضايا ليست وليدة ما بعد الاستقلال. فقد تفطن إلى أهميتها رجل معاصر للشابي حصر اهتمامه في قضيتين حضاريتين: الشغل والمرأة. فقد لاحظ الطاهر الحداد ١٩٠١) (١٩٣٥أن العمال التونسيين مستغَلّون من قبل الأجانب، فعمل صحبة الزعيم النقابي محمد علي الحامي على إنصافهم وتأسيس تعاونيات عمّالية وعلى فصل النقابات التونسية عن النقابات الفرنسية. وبذلك جمع بين الفكر والعمل وخلّد ملحمة العمّال وتوقهم إلى الحرية في كتاب لا يزال شاهداً على مرحلة هامة من تاريخ تونس الحديث. أما كتابه الثاني فقد انتقد بواسطته وضعية المرأة العربية في عصره ودعا إلى تحريرها من ربقة التقاليد البالية متحدياً شيوخ الزيتونة الذين تخرج عليهم. فحقدوا على جرأته وجردوه من لقبه العلمي وأجبروه على السكوت سنين طويلة إلى وفاته في سن مبكرة (٣٤سنة) شأنه في ذلك شأن الشابي الذي توفي قبله بسنة واحدة صغير السن أيضاً (٢٦سنة).

لكن ثمار هذا وذاك أتت أكلها بعد الاستقلال إذ استؤنفت تجربة الحداد التعاضدية ونشأت منذ الأربعينات حركة نقابية وطنية ونص دستور البلاد على المساواة بين الرجل والمرأة في كامل الحقوق (الفصل السادس).

وفي هذا الجو الجديد الذي تسوده رغبة قويّة في البناء وإثبات الهوية ظهرت مجموعات من الأدباء الذين انطلقوا من الواقع وعبّروا عن بعض القيم الأساسية باحثين عن أنماط أدبية ومسرحية طريقة يستلهم بعضها التراث قصد التجذر في حضارة

عريقة ويستفيد من الروافد الأجنبية لكنها تحاول في الآن نفسه أن تتجاوز كل مخزوناتها الثقافية لابتكار أشكال تعبيرية متميزة.

ولعل أهم هذه القيم في إنتاجنا الحديث ما يتعلق بالعدالة الاجتماعية وقد عبّر عنها كتّاب وشعراء ذوو قناعات إشتراكية وطموحات تنزع إلى المساواة بين الجميع نذكر منهم على سبيل المثال منوّر صمادح والميداني بن صالح وصالح القرمادي في بعض قصائدهم وعبدالقادر بن الشيخ في روايته «ونصيبي من الأفق» فهؤلاء جميعاً قد صوروا ـ كل حسب أسلوبه الشخصي ـ ما في المجتمع من تفاوت طبقي وتوق إلى حياة كريمة في مأمن من غوائل الفقر والجهل والمرض. لقد ظهر العمّال الزراعيون والنازحون والبؤساء في أدب هؤلاء في صورة الفئات الضعيفة المحتاجة إلى من يبلّغ صوتها ويلفت الانتباه إلى أوضاعها. ولَم تَكْتَسِ هذه الآثار صبغة خطابية شَعْبَويّة تثير الحماس أو الشفقة أو تقوم بالدعاية الرخيصة إلى مذهب سياسي معين بل حاول أصحابها أن يوظفوا الفن الشعري أو الروائي للتعبير عن تلك الطموحات المشروعة.

وإن هذا كلّه لشديد الصلة بقيمة حديثة صارت لشمولها شعوب العالم الثالث بأسرها إنسانية وهي الصراع من أجل الخروج من التخلف. وقد تشكل هذا الصراع في صور مختلفة كالثورة على الجمود والتقاليد والبيروقراطية والدعوة إلى البناء الحضاري المتين. ومعان كهذه ما كانت وحدها كافية لإعطاء قيمة للمؤلفات الحاملة لها لو لم يكسُها الفنّ حلة جمالية وبالخصوص في روايات مصطفى الفارسي الحائز على جائزة لوتس والبشير خرّيف ومحمد رشاد الحمزاوي والهادي بن صالح وعبدالمجيد عطيّة وفي أقاصيص الطاهر قيقة وعروسية النالوتي وأحمد ممو. وإن ضيق المجال لا يسمح بتحليل آثار كل هؤلاء الكتّاب لاستخراج ما في أدبهم من قيم حضارية لكن نكتفي بالاشارة إلى روح التغيير التي تدفعهم جميعاً إلى تصوير شخصيات ومواقف يفهم منها الاهتمام بقضايا العصر والتقدم في بلاد فتّية رافضة للأوضاع المتردية التي توارثتها الأجيال السابقة.

ولا شك أن نفس الدوافع هي التي تكيّف إنشاء العديد من الكتّاب التونسيين الآخرين المتمسكين بقيم أخرى إنسانية في جوهرها لكنها تكتسي طوراً ظرفية وإقليمية بحسب المناطق التي تعالج فيها. فالحرية بجميع أشكالها محور هام للعديد من المؤلفات إذ تحوّل الكتاب التونسيون من المطالبة بالاستقلال السياسي إلى المطالبة بالحريات الفردية وبالخصوص حريّة التعبير والتفكير. وقد لاحظ بعضهم أن الحركات الثورية تبدأ جماعية واضحة المرامي ثم يتقلص نفوذ الجماعة وتتجمع السلطة لدى مجموعة محدودة من الأفراد إلى أن تبلغ درجة الحكم المطلق.

ذلك ما لاحظه عزالدين المدني في العديد من ثورات العالم الثالث وعبّر عنه في مجموعة من المسرحيات القيّمة مثل «ثورة صاحب الحمار» (١٩٧١) و«ديوان الزنج»(١٩٧٣)و«الحلاج» (١٩٧٣)و«الغفران»(١٩٧٧) و«مولاي السلطان الحسن الحفصي (١٩٧٧)، كما عبّر عنها في مجموعاته القصصية «خرافات» و«من حكايات هذا الزمان» وفي قصة «العدوان». لقد ظهر الكاتب في جميع هذه المؤلفات شديد التعلق بقيمة الحرية التي قرنها دوماً بمفهوم الثورة لكن بمنظار نقدي يغربل زائف الثورات ويقسو على أهل الردة من ذوي المطامح الفردية. وقد تميّزت مسيرة هذا الكاتب الأدبية بالبحث الدائم عن أشكال تعبيرية طريفة تنطلق من التراث لتوظيف مادته التاريخية وأشكاله الفنية لكن تتجاوزه بحركة «تجريبية» لا تطمئن إلى يسير الحلول وجاهز القوالب.

وفي نفس الوقت إتجهت مهجة مجموعة من الشعراء الشبان إلى وجه آخر من وجوه قضية الحرية في الوطن العربي، فساءهم ما يعانيه الشعب الفلسطيني من اضطهاد، وآلمهم أن تغتصب حقوقه بأبشع الصور بينما الضمير العالمي لا يبالي بهذا الانتهاك المفضوح للحرية والضمير العربي عاجز عن تصور أقوم السبل لوضع حد لهذه المظلمة والتعبير عن نقمتهم على من يتعهدها بالصمت أو الشقاق أو اللامبالاة. لكن العديد من القصائد لا يزال قائماً على شعارات بدل الايحاء بما يحير الوجدان من هموم. ولما كان أولئك الشعراء الشبان في بداية الطريق فنحن ننتظر أن يتمخّض غليانهم عن أعلام أفذاذ يضاف عطاؤهم إلى الرواد ويثرون الأدب العربي بل العالمي بشهادة قيّمة عن جرح فلسطين النازف. . . .

ومما يبعث على التفاؤل أن نفس هذا الشعر لا يخلو من نفحات وجدانية تستلهم الذات وتندرج ضمن أهم القيم الانسانية القائمة على تأملات باطنية تتميّز بالحيرة والقلق. ونحن في بعض الأحيان لا ندرك سبب كلّ ذلك التهويم والغموض في الأحاسيس والانفعالات باستثناء التعبير عن عاطفة الحب التي لا تزال من أهم القيم الانسانية على الاطلاق.

ويزداد الأمر غموضاً عندما يلتجىء بعض الشعراء إلى تصورات لا تمت إلى واقع الصراع بصلة بل يمكن ربطها ببعض النفحات الصوفية التي التجأ إليها العبّاد قديماً هروباً إلى الله من زحمة هموم الدنيا. وربما أمكن ربط هذا اللجوء إلى الغيب بنهايات مؤلفات المسعدي التي يقع فيها تصعيد الارادة نحو السماء اثر خيبة الأبطال في الأرض. فابتهالات محمد الغزي في ديوانه «كتاب الماء كتاب الجمر» ومنصف الوهايبي في «ألواح» قد لا تفهم على حقيقتها إلا إذا أدرجناها في هذا الاطار القاتم الذي يدفع الشباب إلى البحث عن آفاق جديدة قديمة إثر صدمة مرارة الواقع واليأس من تغييره. وإذا ما نظرنا إلى هذه التجربة بهذا

المنظار الانساني أمكن تفهم تلك المسيرة الروحية واعتبارها شهادة على محطة روحية لجأ إليها بعض الشبان ببلادنا كما لجأ بعض شبّان أوربا إلى حلول من صنف آخر كتعاطي المخدرات والحرية الجنسية المفرطة والتهمّش وأصناف من الموسيقى ومذاهب دينية شرقية الأصول والسياحة خارج حدود مجتمعات الاستهلاك.

●●●

لقد أجبرنا إطار البحث على اختزال بعض التجارب رغم أهميّتها حين أطنبنا نسبياً في التجارب المنتهية، وذلك لأن أدب المنتجين الأحياء لا يزال متواصلاً ولا يمكن أن نصدر حوله أحكاماً نهائية إلا عندما يكتمل. عند ذلك يمكن أن يستصفي التحليل المتعمق قيماً هامة تساهم بها الثقافة التونسية في تراث الانسانية. بها وبمثيلاتها في سائر الأدب العربي يمكن لنا التصدي للغزو الثقافي الجارف.

دار الآداب تقدم

مؤلفات الكاتب العربي الكبير

حنا مينه

- المصابيح الزرق (طبعة جديدة)
- الشراع والعاصفة (طبعة جديدة)
- الثلج يأتي من النافذة (طبعة جديدة)
- الشمس في يوم غائم
- الياطر
- بقايا صور
- المستنقع (طبعة جديدة)
- الأبنوسة البيضاء
- المرصد
- حكاية بحار
- الدقَل
- المرفأ البعيد
- الربيع والخريف
- مأساة ديمتريو
- ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة
- ناظم حكمت ثائراً
- هواجس في التجربة الروائية
- كيف حملت القلم
- أدب الحرب

(بالاشتراك مع د. نجاح العطار)